إسهامات أعلام الجزائر في التفسير – الجواهر الحسان أنموذجا

Algerian Scholars' Contributions in Tafsir – Al-Jawahir Al-Hisan Book as n a Model

د. امحمد ربة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

rebbamhamed@gmail.com

ملخص:

إن من أشرف علوم الدين ومعارف الشريعة – وهو من علم المقاصد والغايات –: علم التأويل؛ نعم هو بيان كلام الرحمن ومعرفة قصد الشارع في كتابه المترّل على عباده؛ وذلك بكشف ألفاظه وإيضاح معانيه، ومن هنا أوْلى علماء الإسلام على مرِّ العصور وسائر الأمصار عناية فائقة واهتماما بالغا في تقريبه للأذهان وتفهِيمه للأنام.

وقد اكتست جهود المفسرين في تأويل آي القرآن عند السلف والخلف طرائق عديدة ومناهج مختلفة، فمنها تفسير بالأثر وآخر باللغة وثالث بالرأي المحمود والاجتهاد المقبول..، مما أنتج تراثا علميا باهرا ينتفع الناس به إلى يومنا هذا.

وإن من الجهود المبذولة والإسهامات المشهودة في خدمة علم التفسير؛ ما خلَّفه علماء شمال افريقيا من موروث قِيّم في هذا الشأن عبر التاريخ، ومن هذه النماذج الرائدة والكتب المذكورة على وجه التمثيل لا الحصر؛ تفسير الجواهر الحسان في تأويل القرآن للثعالبي الجزائري.

ومن هنا حُقّ للباحث المهتمّ أن يبذل إشكالا علميا وجيها، هو:

ما هي جهود أعلام بلاد الجزائر في تفسير القرآن الكريم ؟ وهل في حوزتهم انجازات معرفية شاهدة لهم بذلك ؟ وإن كان ذلك كذلك؛ فكيف يمكن وصف طبيعة مناهجهم في تناولهم لهذا الميدان ؟

وللإجابة عن هذه الإشكالات المعرفية جاءت هذه الورقة باحثة في هذا الموضوع، وقد اخترت لها عنوان: إسهامات أعلام الجزائر في التفسير – الجواهر الحسان أنموذجا، لتتناسب ومحور الدراسة وهو: التفاسير الجزائرية قبل الحكم العثماني أعلامها واتجاهاتها.

وانتهجت في هذه الدراسة منهجا مركبا من: التحليلي الوصفي والاستقرائي.

ويهدف هذا البحث إلى تحقيق وبلوغ جملة من الأهداف أذكر منها ومن أبرزها: كشف اللثام عن فضل العلماء الجزائريين سيما المفسرون منهم في خدمة القرآن الكريم وتعليمه.

وقد ارتسمت خطة مبدئية للموضوع تتشكل من:

مقدمة: وتتضمن توطئة لموضوع البحث وعناصرها المعروفة منهجيا.

أولا: مقدمة في مفهوم التفسير وبيان أهميته.

ثانيا: واقع العلوم القرآنية بالمغرب الإسلامي عبر التاريخ.

ثالثا: إسهامات أعلام الجزائر في التفسير قبل الحكم العثماني – الجواهر الحسان أنموذجا.

خاتمة: وفيها أهم نتائج البحث وبعض التوصيات المقترحة؛ ومن النتائج المتوصل إليها وفي مقدَّمتها: شرف علم التفسير وفضيلته، عناية علماء المغرب الكبير بعلوم القرآن في القديم والحديث، المكانة الرفيعة لتفسير ثعالبي وحاجة الأمة إليه، دور علماء الجزائر في خدمة كلام الله عز وجل.

كلمات مفتاحية: التفسير، الجواهر، الجزائر، الثعالبي.

Abstract:

The most honorable religious and sharia sciences -which is part of the purposes of sharia-: is the science of interpretation (Tafsir); through which exist the explanation of the words of the Lord and knowing the purpose of His book, which He revealed to His servants; by clarifying its concepts and its meanings, therefore, Islamic scholars

throughout the history and generations have given a great care to bring it closer and explain it to people.

Efforts to provide tafsir of verses of the Holy Qur'an by predecessors and successors involved several methodologies and various approaches, some of which are explaining by tradition, by language, in addition to wise opinion and acceptable reasoning … which produced remarkable scientific heritage that benefit people up to now.

Among the exerted efforts and witnessed contributions in the service of science of tafsir produced by North African scholars is a valuable heritage in this regard throughout the history, among these pioneering examples and the mentioned books … is the book of Al-Jawahir Al-Hisan fi T'awil Al-Qur'an written by Al-Thaalibi Al-Jaza'iri.

Therefore, researchers need to present a directive scientific problem:

What are the efforts of Algeria's scholars in interpreting the Holy Qur'an? Do they have any remarkable achievements? If so, how can the nature of their approach to this field be described?

To answer these cognitive problems, this research paper came to tackle this topic, entitled: Algerian scholars' contributions in tafsir - the book of Al-Jawahir Al-Hisan as a model-, the study subject is: Algerian tafsirs before the Ottoman rule, scholars and tendencies.

I used a complex approach in this study consisting of: the descriptive and inductive analysis.

This research aims to reach a number of goals such as: disclosing the virtue of Algerian scholars in particular interpreters in the service and teachings of the Holy Qur'an.

The first plan of the topic consists of the following:

Introduction: which includes introduction of the research topic

First: Introduction of the concept of tafsir and explaining its importance

Second: reality of Qur'anic sciences in the Islamic Maghreb region throughout the history

Third: Algerian scholars' contributions in tafsir before the Ottoman rule - the book of Al-Jawahir Al-Hisan as a model-.

Conclusion: it includes the most important research outcomes and some suggested recommendations; among the achieved results are: honor and virtue of tafsir science, the Great Maghreb region scholars' care about Qur'anic sciences in the past and now, higher status of Al-Thaalibi's tafsir and the need of the nation for it and the role of Algerian scholars in the service of the book of Allah.

Keywords: tafsir, Jawahir, Algeria, Al-Thaalibi.

تمهيد:

لقد شهدت بلاد افريقيا واحتضنت – على غررا سائر بلاد الإسلام – حركة علمية غير مسبوقة في شتى الفنون العلمية والمدارك المعرفية منذ القدم والأزمان السالفة، حيث يمتد هذا الرقي العلمي الفريد إلى ما قبل أيام الحكم العثماني لبلاد المسلمين والواقعة في الفترة الزمنية ما بين: 1516م إلى 1830م، أي: ما قبل القرن العاشر للهجرة، والفضل راجع في ذلك – بعد الله تعالى – إلى وفرة نخبة من العلماء والمحققين الذين سكنوا ديارها وانتشروا بين أظهرها...

ومما اشتهرت به قارة افريقيا وارتفعت على كثير من البلاد الإسلامية بغضِّ النظر عن رواج سوق الحديث واللغة وغيرهما بين ربوعها؛ عنايتها بكتاب الله تعالى واشتغالها بعلومه وأدواته على وجه يندر وقوعه في كل الأزمان.

وبما أنه قد قَصَرنا الحديث في هذا البحث عن افريقيا ونتاجها المعارفي؛ فإننا نيمِّم وجوهنا مرة أخرى صوب شمالها على وجه التحديد؛ والقصد هو: بلاد الجزائر العامرة بالأمن والإيمان؛ و العلم والإسلام.

إن علاقة أرض الجزائر الطيبة وارتباط اسمها بالعلم وأهله حاضر منذ زمن بعيد؛ سيما ما تعلق بالتفسير وعلوم القرآن الكريم، حيث كان لها الكعب العالي والقِدْح والمعلَّى في هذا الجانب، إذْ عرفت بشهرة المجد في علم التأويل، وخير شاهد على هذا من جهة التمثيل لا الحصر: كتاب الجواهر الحسان في تأويل القرآن لصاحبه الإمام المفسر: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المغربي الأفريقي.

وردّا للجميل واعترافا بالفضل لأئمة المسلمين في بلادنا الجزائر السابقين، فقد رأيت من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب تسليط الضوء والوقوف عند أحد قامات العلم ومقامات الشرف؛ وهو الثعالبي المفسِّر، وذلك بتدوين ورقات معدودات وخطِّ أسطر معلومات..؛ قد أسميتها: **إسهامات أعلام الجزائر في التفسير – الجواهر الحسان أنموذجا.**

أولا: مقدمة في مفهوم التفسير وبيان أهميته.

1: مفهوم التفسير لغة واصطلاحا.

أ. **التفسير لغة:** من فعل: فَسَر بالتخفيف أو فسّر بالتشديد، وأصل الفَسر في لسان العرب هو: البيان والكَشف والإيضاح، يقال: "فسَرت الحديث أفسره فسرا، إذا بيّنته وأوضحته، وفسَّرته تفسيرا كذلك"[1]. والتشديد للمبالغة والتأكيد في المعنى، أي: فسَر وفسّر هما نفس الشيء.

ويقول ابن الأعرابي: "الفَسْر: كشف ما غُطي"[2].

هذا وقد حصل خُلف بين اللغويين حول الفرق بين: التفسير والتأويل: فقال ابن الأعرابي: "التفسير والتأويل، والمعنى واحد..، وقال بعضهم: التفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكِل. والتأويل: ردُّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر"[3].

وذكر الفيروزآبادي[4] في هذا السياق جملة من الوجوه الفارقة بين التفسير والتأويل: حيث اعتبر أن التفسير هو البحث عن سبب نزول الآية، وبيان موضع الكلمة، من ناحية اللغة. أما التأويل فهو التفحُّص عن أَسرار الآيات، والكلمات، وتعيين أَحد احتمالات الآية. وهذا إِنَّما يكون في الآيات المحتملة لوجوه مختلفة، نحو: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ [لقمان: 20] وكقوله: ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ**﴾ [فاطر: 32]، "فإن هذه الآيات ونظائرها تحتمل معاني مختلفة، فإذا تعيَّن عند المؤوّل أَحدها، وترجَّح، فيقال حينئذ: إنه أَوَّل الآية"[5].

فكأن الفيروزآبادي أراد أن يقول بأن التفسير متعلِّق: بكشف معاني الألفاظ القرآنية المشكِلة وإيضاح

---

1 جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م، مادة: ف س ر، 718/2.

2 تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م، مادة: ف س ر، 282/12.

3 المصدر نفسه، 283/12. ولسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف القاهرة، دط ، دت، مادة: ف س ر، 3412/5 – 3413.

4 يراجع: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، دط، دت، 80/1.

5 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المراد منها لغويا، أما بالنسبة للتأويل: فهو يبحث في أبعد من ذلك حيث يتعلق الأمر بالتأليف بين المعاني المختلفة للآيات جمعا أو ترجيحا.

وقد ذكر غير واحد من اللغويين وأهل التفسير من الفروق الدقيقة ما من شأنه الفصل بين الاصطلاحين؛ في حين اعْتُبِـــرا أنهما شيء واحد عند آخرين، ليبقى التنازع – في نهاية المطاف – حول هذه المسألة قائما منذ القديم بين العلماء، ويظلُّ انتصار كل فريق لرأيه هو سيد الموقف بينهم؛ حتى عند بعض الباحثين في عصرنا الحديث.

وقد قال ابن حبيب النيسابوري: "قد نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه"[1]. أي: إن بسبب عمق الخلاف ودقة الموضوع، وتشابك الآراء وتداخل التخريجات اللغوية لكلا المصطلحين.

وهذا ما يجعلني أرى بأن الفرق بين: التفسير والتأويل لا يعدو أن يكون مجرد خلاف لفظي فقط.

ب. التفسير اصطلاحا: أما بالنسبة لتعريف التفسير من ناحية الاصطلاح؛ فقد تنوعت عند علماء القرآن وأهل التفسير صياغاتهم اللفظية واختلفت عباراتهم في ذلك، حيث نلمس نوعا من التباين حول بعض ما ذكروه في بيان حقيقة هذا المصطلح.

فها هو الزركشي يعرِّف التفسير قائلا: "علم يُعرف به فهم كتاب الله تعالى المترل على محمد صلّى الله عليه وسلّم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه"[2].

ويؤكِّد الزرقاني هذا المعنى حين تعرّض لمفهوم التفسير، حيث ذكر في مناهل العرفان بأنه: "علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"[3].

فقد اتفقا هذان المعرِّفان على أن التفسير بصفة عامة؛ هو علم يبحث ويُراد به معرفة معاني القرآن الكريم المختلفة.

---

1 الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1394هـــ، 1974م 192/4.

2 البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة، ط1، 1376هـــ، 1957م، 13/1.

3 مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط3، 3/2.

ويأتي عند أبي حيان الأندلسي في البحر المحيط تعريف مغاير بعض الشيء لما سبق، وذلك في قوله: "التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك"[1].

فيُلْحظ على هذا التعريف إضافة علم القراءات وإدراجه ضمن علم التفسير، ويبرَّر صنيع أبي حيان إذا علمنا أن للقراءات أثر كبير في تغيير المعنى واختلاف دلالات النصوص؛ تبعا لتعدُّد أوجه القراءة الواردة في الآية الواحدة، ومثال ذلك: الاختلاف في قراءة كلمة: (وضعت) من قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾ [آل عمران: 36]. حيث قرئت بضمير الغائب: (وضعَتْ) العائد على الله سبحانه، كما قرئت كذلك بضمير المفرد المخاطب: (وضعْتُ) العائد على مريم عليها السلام[2]. فيختلف المعنى باختلاف القراءة للمفردة الواحدة. وهذا وجه دخول القراءات في حيز التفسير.

2: أهمية التفسير.

إن تفسير القرآن العظيم أو ما يسمى عند العلماء بـــ: علم التأويل ؛ من أشرف العلوم الإسلامية وأزكى المعارف الدينية، بل هو أشرفها على الإطلاق وأعلاها مكانة؛ وأعظمها أجرا وثوابا؛ وأوفرها نفعا وفضلا، ذلك لأن شرف العلم من شرف المعلوم به، ويكفي هذا العلم شرفا وسموّا؛ أنه يبحث في معاني أفضل كلام وأصدق حديث وهو كلام رب العالمين سبحانه، ومن هنا كان لزاما على المسلمين عموما وعلى طلاب العلم خصوصا؛ أن يدركوا فضل هذا العلم وأن يعتنوا به غاية العناية أكثر مما عداه من علوم.

إن ثمرات علم التفسير اليانعة وفضائله الجمّة أكثرُ من أن تُـــحصرَ وأشهر من أن تُذكر، فالاشتغال بعلم التفسير هو السبيل الوحيد لتحقيق المقصود الأعظم والغاية الكبرى من إنزال الكتاب العزيز؛ وهو نيل التدبر المأمور به شرعا والقيام به عملا بعد ذلك، وهذا في قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ**

1 البحر المحيط في التفسير، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل دار الفكر، بيروت، دط، 1420هـــ 26/1.

2 يراجع: كتاب السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد، تحقيق: شوقي ضيفدار المعارف، مصر، ط2، 1400هـــ، ص 204.

﴿**الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)**﴾ [النساء: 82]. وقوله عز وجل: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)**﴾ [ص: 29].

هذا؛ وقد أثنى الله تبارك وتعالى في كتابه على الذين يتّبعون معانيَ الكتاب، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ [البقرة: 121].

قال مجاهد في معنى: **(يتلونه حق تلاوته)**: "يتّبعونه حقَّ اتِّباعه"[1]. ولا يكون ثمة اتباع له بالعمل به إلا بعد الفهم والتعقّل، إذِ العلم سابق للعمل ومقدَّم عليه.

وجاء الإنكار على الذين لا يتدبّرون آيات القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68)**﴾ [المؤمنون: 68]. فقوله تعالى: **(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ)** "يعني: القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات والعِبَر على صدق رسولهم"[2].

كما أنه قد جاء في السنة النبوية تعليق الخيرية لهذه الأمة بتعلُّمها للقرآن وتعليمه، وذلك في قول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: ((**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**))[3]. قال أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه وكان من الفقهاء المقرئين: "وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا"[4]. أي مجلس تعليم القرآن الكريم.

وإذا كان الحديث يتناول علم القراءات والتجويد والضبط وما إلى ذلك من علوم القرآن الكريم؛ فما من شك أن علم التفسير من أشرف أبواب تعلُّمِ القرآن الكريم وتعليمه؛ إن لم يكن بابها المقدّم في النفع والثواب.

---

1 معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1420 هـ، 161/1.

2 زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1422 هـ، 267/3.

3 رواه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم: 5027. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422ه، 192/6.

4 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

إن الحديث عن فوائد التفسير الغزيرة وعوائده الجليلة لتحتاج منا إلى كتب وكتب..، ولهذا سأقتصر على ذكر بعض المأثورات الثابتة عن علماء السلف الصالح في باب التفسير؛ وكيف أشادوا به وحضّوا على تعلُّمه وتعليمه.

يقول إمام المفسرين أبو جعفر الطبري متعجِّبا ممن يجهل بالتفسير: "إني أعجب ممن قرأ القرآن و لم يعلم تأويله كيف يلْتذ بقراءته"[1].

وروى ابن عطية في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "الذي يقرأ ولا يفسِّر كالأعرابي الذي يهذُّ الشعر"[2]. وعن مجاهد أيضا قال: "أحبُّ الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل"[3] أي: من الكتاب الحكيم.

ومن عجيب ما يُروى عن السلف في حرصهم على إدراك علم التفسير: أن مسروقا رحمه الله تعالى رحل إلى البصرة ثم إلى الشام في تفسير آية واحدة حتى علم تفسيرها[4].

ومنْ مِنا اليوم يرحل في تفسير القرآن كله؛ فضلا عن نصفه أو ما دون ذلك.. ؟ !

وخلاصة القول: أن المعرفة بالقرآن الحكيم عند بعض المفسرين؛ هي الحكمة التي يؤتيها الله من يشاء من عباده في قوله تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ** (269)﴾ [البقرة: 269]. حيث جاء في تفسير الطبري عن بعضهم بأن المراد بالحكمة التي ذكرت في هذا الموضع، هي: القرآن والفقه به، وهو قول ابن عباس وقتادة[5].

---

1 معجم الأدباء، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق: إحسان عباس دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414 هـ، 1993 م، 2453/6.

2 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 40/1.

3 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4 فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط1، 1414 هـ، 16/1.

5 جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1420هـ، 2000 م، 576/5.

ثانيا: واقع العلوم القرآنية بالمغرب الإسلامي عبر التاريخ.

1: بلاد المغرب قديما وحديثا:

أ. بلاد المغرب قديما:

في البداية على القارئ أن يحيط علما بجغرافية المغرب قديما وحديثا؛ حيث يوجد اختلاف بين المرحلتين كما يأتي بيانه:

"(المغرب): بالفتح، ضد المشرق، وهي بلاد واسعة كبيرة. قيل حدّها من مدينة مليانة، وهي آخر حدود إفريقيّة إلى آخر جبال السوس التي وراءها البحر المحيط، تدخل فيه جزيرة الأندلس، وطول هذا في البرّ مسيرة شهرين"[1]. هنا تم التصريح من القطيعي بدخول جزيرة الأندلس في بلاد المغرب.

فهذا تقسيم قديم لبلاد المغرب، حيث كانت تضم جزيرة الأندلس داخل حدودها الجغرافية، ولهذا كان لا يفرَّق بين بلاد المغرب والأندلس باعتبارهما رقعة جغرافية واحدة لا تتجزأ، فكان يطلق عليها: بلاد المغرب والأندلس. وعلى الرغم من أن الأندلس كانت جزيرة في طبيعة تضاريسها؛ ومع ذلك حذف اسم الجزيرة وضُمَّت إلى بلاد المغرب في تعبيرات الجغرافيين القدامى وتسمياتهم لها.

وقد جاء في كتب بعض الجغرافيين والبلدانيين حقيقة دخول الأندلس في بلاد المغرب قديما، حيث أبان أبو إسحاق الاصطخري عن هذا الأمر قائلا: "وأمّا المغرب: فهو نصفان يمتدّان على بحر الروم؛ نصف من شرقيّه ونصف من غربيّه، فأمّا الشرقيّ فهو برقة وافريقيّة وتاهرت وطنجة والسوس وزويلة وما في أضعاف هذه الأقاليم، وأمّا الغربيّ فهو الأندلس"[2]. أي أن الأندلس كانت واقعة في الشق الغربي من المغرب. حيث كانت: "الأندلس جزيرة كبيرة بالمغرب فيها عامر وغامر"[3].

ويقول الحموي أيضا: "وأرض الأندلس: من على البحر تواجه من أرض المغرب تونس، وإلى طبرقة

1 مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفيّ الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ابن شمائل القطيعي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412 هـ، 1239/3. ومعجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، 161/5.

2 المسالك والممالك، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، دار صادر، بيروت، دط، 2004م، ص 36.

3 آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت، دط، دت، ص 503.

إلى جزائر بني مزغناي ثم إلى نكور ثم إلى سبتة ثم إلى أزيلي ثم إلى البحر المحيط"[1] [2].

وقد كانت نِسبة العلماء والمحقِّقين إلى الأندلس كثيرة جدا، فيقال مثلا: فلان الفقيه النحوي الأندلسي، وذلك لشرفها على بقية الأقطار وشهرة ميادين العلوم في أرجائها على سائر الأمصار؛ خاصة عاصمتها قرطبة وما جاورها من مدن العلم والشرف كغرناطة واشبيلية.

ب. بلاد المغرب حديثا:

أما بالنسبة للتقسيم الحديث: فتخرج الأندلس يقينا من بلاد المغرب بعد سقوطها في أيدي النصارى الغاصبين، و مع مرور الأيام والليالي تغيرت كثيرا جغرافية الأرض واختلفت حدود الدول والأقاليم شيئا فشيئا، حيث نرى اليوم بأن بلاد المغرب ليست هي ذاتها بالأمس، إذ تتشكل بلاد المغرب حاليا من خمس أقاليم أو دول؛ والتي تقع في شمال وشرق ووسط قارة افريقيا هي: ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا.

وإذا أخذنا بالتقسيم القديم لبلاد المغرب الاسلامي بما فيها ذلك أرض الأندلس، فإننا سنقف لا محالة على تراث علمي ضخم في مجال العلوم القرآنية على اختلاف أنواعها.

2: العلوم القرآنية بالمغرب الإسلامي عبر التاريخ – قديما وحديثا –.

لقد كانت بلاد المغرب والأندلس عامة وقرطبة خاصة مهد الحضارات ومهوى أفئدة المسلمين، حيث جاءت في وصفها الأخبار المستفيضة والنعوت الجميلة، وذلك لأنها كانت تعجّ بالعلماء المبرِّزين في شتى الفنون النقلية والعقلية، سيما في ميدان التفسير وعلوم القرآن والقراءات وما على ذلك من أبواب الدراسات القرآنية.

يقول إسحاق بن الحسين المنجم: "وقاعدة الأندلس، مدينة قرطبة، وهي دار السّنة، ومجمع كل آية،

---

1 معجم البلدان، الحموي، 262/1.

2 ويقول المراكشي في فصل: ذكر جزيرة الأندلس وحدودها: "فأول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الأندلس وتحديدها والتعريف بمدنها ونبذ من أخبارها وسير ملوكها، من لدن فتحها إلى وقتنا هذا وهو سنة 621؛ إذ هي كانت مُعْتمد المغرب الأقصى، والمعتبرة منه، والمنظور إليها فيه". المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، محيي الدين، تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1426هـ، 2006م، ص 13.

وليس في الدنيا مثلُها، فأغنى ذلك عن ذكرِها"[1].

ويقول المراكشي في وصف أحد ولاة الأندلس: "ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء، وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب"[2].

ويقول المقري التلمساني نقلا عن الحجاري في المسهب: "كانت قرطبة في الدولة المروانية قبّة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام.. وإليها كانت الرّحلة في الرواية إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد"[3].

أ. العلوم القرآنية بالمغرب في العصر القديم[4].

من أشهر العلماء الذين احتضنتهم بلاد المغرب والأندلس وخصوصا عاصمتها قرطبة والذين سخّروا أقلامهم في العلوم القرآنية ودراساته من: تفسير، وقراءات، ووقف وابتداء، وآيات الأحكام..، مما أنتج تراثا علميا غير مسبوق، فحازت بفضلهم بلاد المغرب آنذاك قسَب السبق في خدمة كتاب الله تعالى تعلما وتعليما وتأليفا وتدريسا، حيث نذكر من هؤلاء ما يلي:

- القرطبي صاحب تفسير الجامع لأحكام القرآن.
- أبو حيان الأندلسي صاحب البحر المحيط في التفسير.
- مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني الأندلسي صاحب المصنفات في علم القراءات منها: الكشف عن وجوه القراءات السبع، والإبانة عن معاني القراءات، ومشكل إعراب القرآن.
- ابن الفرس الأندلسي صاحب أحكام القرآن.
- ابن العربي المالكي الأندلسي صاحب أحكام القرآن.
- ابن عطية الأندلسي صاحب المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.

---

1 آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، إسحاق بن الحسين المنجم، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408 هـ، ص 106.

2 المعجب، المراكشي، ص 176.

3 نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صاد، بيروت، لبنان، دط، 1900م، 153/1.

4 ومن أراد الاستزادة في موضوع الدرس التفسيري بالأندلس فليراجع رسالة قيمة جامعة في هذا السياق بعنوان: مدرسة التفسير بالأندلس للمؤلف: مصطفى إبراهيم المشيني.

– أبو الحسين عبيد الله بن أبي جعفر الأندلسي الإشبيلى صاحب تفسير الكتاب العزيز وإعرابه.

– ابن جزي الكلبي الغرناطي صاحب التسهيل لعلوم التنزيل.

– أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي صاحب ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل والبرهان فى تناسب سور القرآن.

– أبو الحسن علي بن فَضَّال بن علي بن غالب المُجَاشِعِي القيرواني صاحب النكت في القرآن الكريم.

– أبو محمد القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي صاحب متن الشاطبية.

– ابن البناء المراكشي صاحب عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل.

– أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي ثم البيري، أبو جعفر الأندلسي صاحب تحفة الأقران في ما قرئ بالتثليث من حروف القرآن.

أبو الحسن علي بن محمد بن سالم النوري الصفاقسي صاحب تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين.

أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني صاحب لطائف الإشارات لفنون القراءات.

هذا؛ ولو ذهبنا نستقصي أسماء علماء المغرب والأندلس الأقدمين الذين اعتنوا بالقرآن الكريم وعلومه ونعدِّد تصانيفهم لاحتاج منا ذلك إلى مجلدات ضخمة ومدونات كثيرة..، ولكن حسبنا فيما ذكرناه إشارة على ما لم نذكره.

ب. العلوم القرآنية بالمغرب في العصر الحديث[1].

أما عن واقع العلوم القرآنية في بلاد المغرب في العصر الحديث فهي وإن كانت أقل رتبة مما كان عليه النشاط العلمي والنتاج المعرفي قديما، غير أنه قد برز عديد العلماء من المحدَثين الذين خلّفوا مراجع نافعة ذات الصلة بكتاب الله عز وجل.

فنجد عندنا مثلا:

– في ليبيا: تفسير إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن لأحمد عبد السلام أبو مزيريق

– في تونس: تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

– في الجزائر: تفسير مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس.

1 ومن أراد الاستزادة في موضوع الدرس التفسيري بالمغرب في القرون المتأخرة – العصر الحديث – فليراجع رسالة قيمة جامعة في هذا السياق بعنوان: الدراسات القرآنية بالمغرب في القرن الرابع عشر الهجري للمؤلف: إبراهيم الوافي.

– في المغرب: تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي.

في موريتانيا: تفسير أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي.

هذا من جانب التأليف والكتابة؛ أما من جانب التدريس النظامي والتكوين الأكاديمي فهذا لا يقل درجة عن الأول؛ حيث تقع في بلاد المغرب عدة جامعات ومعاهد تضم في رحابها كليات موجهة للدراسات القرآنية والتي تعنى بتخصصات شتى في هذا الميدان: من تفسير وقراءات وعلوم القرآن..، فضلا عن الكتاتيب القرآنية ومدارس التحفيظ التي ولله الحمد تزخر بها دول المغرب الإسلامي، حيث لا تزال قائمة ومتوهِّجة على الرغم من السعي الحثيث من الدول الاستعمارية التي غزت هذه البلدان الإسلامية عقودا من الزمن، والتي حاولت غلق أبوابها والصدَّ عنها بكل وسيلة، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

ثالثا: إسهامات أعلام الجزائر في التفسير قبل الحكم العثماني – الجواهر الحسان أنموذجا.

وعطفا على ما تقدم ذكره آنفا من رواج العلوم القرآنية بالمغرب الإسلامي وعناية أهل العلم بها من حيث تقريب: معاني القرآن؛ وقراءاته؛ وإعرابه؛ وإعجازه؛ وغريبه؛ ومشكله؛ وذلك لعموم المسلمين وخاصتهم، فإن الحديث في هذه الفقرة سيكون مُنْصَبا على إقليم من الأقاليم المغربية وهي أرض الجزائر الطيبة، وكيف أنها جادت بتصانيف نفيسة في الدراسات القرآنية قلّ في الدنيا نظيرها وعزّ بين الأنام مثيلُها، وغيرُ ذلك من نبوغ مُلفت لأهل التفسير بين أظهرها، وقد وقع اختيار الدراسة على علم من أعلام التأويل وكتابه الفريد وهو: الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي.

وسيكون الإطار الزمني المقرَّر في اختيار شخصية البحث التفسيرية محددا بفترة ما قبل الحكم العثماني لبلاد الجزائر، – ما قبل القرن العاشر الهجري –، حيث يمتد الحكم العثماني ما بين سنة 1516م إلى 1830م/ 922هـ إلى 1246هـ[1]، وقد كانت وفاة الثعالبي – رحمه الله – في نهاية القرن التاسع: 875هـ أو 876هـ[2]، أي قبل مجيء العثمانيين للجزائر بما يقرب من نصف قرن من الزمن.

1: التعريف بالثعالبي شخصيا وعلميا.

نتطرق في ترجمة الثعالبي من جهتين: الأولى: شخصية الثعالبي، والثانية: عِلمية الثعالبي.

أ. التعريف بالثعالبي شخصيا.

– **اسمه وكنيته، لقبه ونسبه:** هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، أبو زيد، الثعالبي، الجزائري، المغربي[3].

1 يراجع: الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، مطبوعات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984م، ص 14.

2 يراجع: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1424هـ، 2003م، 382/1.

3 يراجع: المصدر نفسه، الصفحة نفسها. والضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، دت، 152/4. وهدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي، وكالة المعارف الجليلة، استانبول، دط، 1951م، 532/1. ومعجم المؤلفين عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت، 192/5. والموسوعة الميسرة في =

- **مولده ونشأته:** ولد الثعالبي سنة 786هـ[1] ونشأ بناحية "وادي يَسَّر" - ببومرداس حاليا – بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر، وانتقل إلى بجاية سنة 802هـ فأخذ عن علمائها[2]، ثم أخذ بعدها في رحلاته الكثيرة. وهذا حاصل ما ذكره أهل التراجم عن حياته في الصغر ولم تسهب في الحديث عنها ولا عن أسرته ومحيطه الذي ترعرع فيه.

- **أسرته:** لم تذكر المصادر المترجمة للثعالبي شيئا عن وضع أسرته أو طرفا من أخبارها: كأبويه وإخوانه وأقاربه، والظاهر أنها كانت أسرة متواضعة أو فقيرة؛ ولم تكن من أهل السلطة والملك آنذاك.

وفاته: توفي الثعالبي سنة 875هـ أو 876هـ والأول هو الأقرب، أي: عن نحو تسعين سنة[3]؛ وذلك بعد عمر مديد حافل بالتعلم والتعليم والتأليف، أما عن مكان الوفاة وموضع دفنه فلم أجد لذلك من ذكرٍ في كتب الطبقات، سوى عادل نويهض ذكر بأنه توفي في شهر رمضان المبارك ودفن بجبانة الطلبة في مدينة الجزائر[4]. فرحمه الله وأسكنه في عليين.

ب. التعريف بالثعالبي علميا.

لقد كان الثعالبي سائرا على سنن العلماء قبله في طلب العلم وتحصيله، حيث اقتفى أثرهم في سلوك

= تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، جمع وإعداد: وليد بن أحمد الحسين الزبيري وآخرون، مجلة الحكمة، مانشستر، بريطانيا، ط1، 1424هـ، 2003م، 1196/2. ومعجم المفسرين، عادل نويهض، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1409هـ، 1988م، 276/1. والأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، 331/3. ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج التنبكتي، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، ط2، 2000م، ص 257. ومعجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ، 1980م، ص 90.

1 يراجع: شجرة النور الزكية، ابن مخلوف، 382/1. والأعلام، الزركلي، 331/3.

2 يراجع: معجم المفسرين، عادل نويهض، 276/1. ومعجم أعلام الجزائر، ص 90.

3 يراجع: المصدر السابق، الصفحة نفسها. والضوء اللامع، السخاوي، 152/4. وهدية العارفين، البابانى، 532/1.

4 معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 91.

هذا الطريق حذو القذة بالقذة، فهو صاحب رحلات كثيرة شرق بلاد الإسلام وغربها بغية مقابلة العلماء والأخذ عنهم والسماع منهم...

ولهذا فقد حفظت لنا كتب التراجم وسجلت له من سفره في طلب العلم والفقه في الدين منذ الصغر الشيء الكثير، ونظرا لطول مسيرة هذا الإمام وكثرة رحلاته في نيل علوم الشريعة ومعارفها، فلا مناص لي حينئذ من الاختصار؛ وإلا فالواقع يقتضي سفرا منفردا في هذا الشأن فقط.

- **رحلاته:**

انتقل من مسقط رأسه إلى بجاية سنة 802 هـ فأخذ عن علمائها، ثم انتقل إلى تونس سنة 809 هـ فلقي بها أكابر العلماء وأخذ عنهم، وفي سنة 817 هـ سافر إلى مصر. ثم ارتحل إلى تركية ومنها إلى الحجاز، فحجّ وعاد إلى تونس سنة 819 هـ ومنها إلى الجزائر[1].

وقد روى الثعالبي بنفسه كيف بدأ رحلاته العلمية: بدءا من بجاية إلى تونس ثم إلى المشرق ليعود إلى تونس مرة أخرى[2].

يقول عادل نويهض: "وتعلم في بجاية وتونس ومصر. ودخل تركيا، ثم حجّ، وعاد إلى تونس سنة 819هـ، ومنها إلى الجزائر. وولي القضاء على غير رضى منه، ثم خلع نفسه"[3].

إذن لقد وطأت قدما الثعالبي عديد البلدان الإسلامية فضلا عن بجاية بحثا عن العلم والعلماء، مثل: تونس، ومصر، الحجاز، وتركيا. وهذا ما يُشعر القارئ والمتأمِّل في سيرة هذا الإمام بمدى جَلَده في طلب العلم وسعيه بجدٍّ واجتهاد، وتكبُّده للأسفار وقطعه للقفار؛ مع أن الغالب على أهل العلم قديما هو الفقر وقلة المعين، ومع ذلك كله فقد كتب الله تعالى على يديه مصنفات بديعة في شتى العلوم سنذكرها فيما يأتي.

- **شيوخه:** إن أسماء الشيوخ الذين تعلّم الثعالبي على أيديهم ونهل من فيض معارفهم وأخذ منهم السمت والأدب قبل ذلك لا يحصون لكثرتهم من أئمة أهل المشرق والمغرب، وهذا راجع إلى كثرة

1 يراجع: معجم المفسرين، عادل نويهض، 276/1.
2 يراجع: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 258 – 259.
3 معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 89 – 90.

رحلاته التي فتحت له أبواب ملاقاة أهل العلم والاستفادة منهم، وسوف أذكر بعض هؤلاء العلماء والمشايخ الذين صرّح بالأخذ عنهم كما يأتي بيانه، وإلا فقد بلغ عدد الذين أورد أسماؤهم خمسة عشر عالما داخل الجزائر وخارجها، عدا من آثر ترَك ذكرهم والتصريح بهم:

في الجزائر: لقي الثعالبي – في بجاية – جمعا من العلماء وأهل الفضل والدين؛ وقد صرَّح بنفسه بالأخذ عنهم والجلوس إليهم، منهم: الفقيه الزاهد الورع عبد الرحمن الوغليسي، والفقيه المحقِّق أبي الربيع سليمان بن الحسن، والإمام العلامة أبي العباس النقاوسي..، وغير هؤلاء كثير[1].

أما خارج الجزائر فقد لقي كذلك طائفة من العلماء المميزِين:

ففي تونس: لقي أصحاب ابن عرفة المفسر وكانوا يومئذ متوافرون أمثال: الشيخ أبو مهدي عيسى الغبريني، والشيخ الجامع بين علمي المنقول والمعقول: أبو عبد اللّه الأبي، وأبو القاسم البرزلي، وأبو يوسف يعقوب الزغبي وغيرهم[2].

وفي مصر: سمع البخاري على البلالي، وحضر مجلس شيخ المالكية بها: أبو عبد اللّه البساطي، كما حضر كثيرًا عند شيخ المحدثين بها: ولي الدين العراقي وأخذ عنه علومًا جمة معظمها علم الحديث، كما قام بإجازته[3].

– **تلامذته:** لقد أخذ عن الثعالبي ثلة طيبة من الأئمة وتخرّج على يديه جمع مبارك من العلماء ولله الحمد والمنة، منهم: ابن مرزوق الكفيف، والشيخ السنوسي، وأخوه لأمه علي التالوتي، وابن سلامة البسكري، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي أوالمقيلي، والشيخ زروق، وأبو العباس الجزائري[4]. وهذا فيه دليل على حرصه على بث العلم بين العباد واهتمامه بالدعوة إلى الله تعالى.

– **مصنفاته:** كان الثعالبي مشاركا في العديد من علوم الشريعة الإسلامية؛ ولا أدلَّ على هذا من تراثه

1 يراجع: الضوء اللامع، السخاوي، 152/4. ونيل الابتهاج، التنبكتي، ص 258. وشجرة النور، ابن مخلوف، 382/1.
2 يراجع: المصادر نفسها، الصفحات نفسها.
3 يراجع: المصادر نفسها، الصفحات نفسها.
4 يراجع: شجرة النور، ابن مخلوف، 382/1. ونيل الابتهاج، التنبكتي، ص 260.

التأليفي الوفير الذي خلّفه للأمة من بعده، حيث كان له في كل فن سهم ونصيب، فصنف في التفسير والحديث والفقه والقراءات والرقائق، حتى باتت كتبه تقدّر بالعشرات عددا. وقد ذكر عادل نويهض أن للثعالبي أكثرُ من تسعين كتابا[1]، غير أن الذي اشتهر من بين سائر كتبه: كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن. حتى صار عَلما يُعرف به فيقال: الثعالبي صاحب تفسير الجواهر. أو يلقّب بـــ: الثعالبي المفسِّر.

ومن مؤلفاته النافعة ومصنفاته البديعة ما يأتي[2]:

في التفسير: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، وهو اختصار لتفسير ابن عطية المحرر الوجيز.

في القراءات: شرح منظومة ابن بري في قراءة نافع، والمختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع .

في الحديث: أربعون حديثا مختارة.

في الشمائل المحمدية: كتاب في معجزاته – صلى الله عليه وسلم –، والأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة.

في الفقه: روضة الأنوار، وشرح على مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي، وكتاب جامع الأمهات في أحكام العبادات، وجامع الفوائد.

في الأذكار: التقاط الدرر، والدر الفائق في الأذكار والدعوات، ورياض الصالحين.

في الرَّقائق: العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة، وإرشاد السالك، وكتاب النصائح، والإرشاد مصالح في العباد.

في إعراب القرآن: كتاب تحفة الأقران في إعراب بعض آي القرآن.

في غريب القرآن: الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز.

---

1 معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 90.

2 يراجع: شجرة النور، ابن مخلوف، 382/1. والضوء اللامع، السخاوي، 152/4. ونيل الابتهاج، التنبكتي، ص 259. وهدية العارفين، الباباني، 533/1 – 534.

وغير ذلك من الرسائل والكتب التي لا يستع المقام لذكرها.

– **مكانته ومناقبه:** حظي الثعالبي بالثناء الجميل والذِّكر الحسن مِن كل مَن عرفه ووقف على طرف من سيرته وحياته، ولهذ توالت ثناءات العلماء وتواترت شهاداتهم له بكل خير وفضل؛ سواء في تعبُّده لله تعالى وزهده وورعه، أو في غزارة علمه واتِّساع مداركه.

يقول ابن مخلوف في وصف علمه: "الإمام علم الأعلام الفقيه المفسر المحدّث الراوية العمدة الفهامة الهمام الصالح الفاضل العارف بالله الواصل أثنى عليه جماعة بالعلم والصلاح والدين المتين"[1].

ويقول السخاوي: "وكان إماما علامة مصنفا"[2].

ويقول التُّنْبُكْتي هو الآخر في كلام بليغ: "الشيخ الإمام الحجة العالم العامل الزاهد الورع ولي اللَّه الناصح الصالح العارف باللَّه أبو زيد شهر بالثعالبي، صاحب التصانيف المفيدة، كان من أولياء اللَّه المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد اللَّه الصالحين"[3].

– **مذهبه الفقهي:** هو مالكيّ المذهب، يقول رضا كحالة: "عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجزائري، المالكي أبو زيد[4]. ويقول الزبيري: "..الثعالبي الجزائري المغربي المالكي"[5].

ويدل على مذهبه: حضوره مجلس شيخ المالكية أبو عبد الله البساطي، وسماعه للموطأ من ابن مرزوق وأخذه للإجازة منه[6]. بالإضافة إلى عنايته بخدمة مذهب مالك تأليفا، كشرحه على مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي في سفرين، جمع فيه نخب كلام المالكية كابن رشد وغيره[7].

– **مذهبه العقدي:** بالرجوع إلى المصادر التي ترْجمت سيرة هذا الإمام؛ فإننا لا نجد فيها أيَّ ذكر أو

1 شجرة النور، ابن مخلوف، 382/1.
2 الضوء اللامع، السخاوي، 152/4.
3 نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 257 – 258.
4 معجم المؤلفين، رضا كحالة، 192/5.
5 الموسوعة الميسرة، الزبيري، 1196/2.
6 يراجع: شجرة النور، ابن مخلوف، 382/1. ونيل الابتهاج، التنبكتي، ص 258 – 259.
7 المصادر نفسها، الصفحات نفسها.

تعرُّض لمذهبه العقائدي، عدا الزبيري في موسوعته نقلا عن المغرواي[1].

بينما يقول صاحب كتاب: (المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات) في وصف عقيدة الثعالبي: "أما عقيدة الأسماء والصفات في تفسيره: فهو ينقل عبارات ابن عطية ويقرها، وعلى كل حال، هو مؤول أشعري في جميع الصفات، يرى أن المذهب الحق هو مذهب المؤولة من المتكلمين. وخير حجة وبرهان، هو الوقوف على عين المكان، فانظر بنفسك في تأويلاته في الصفات التي أثبتها مأخوذة من تفسيره حتى لا يكون علمك من باب الظن والتخمين، ولكن من باب علم اليقين فيه وفي غيره من المفسرين"[2]. ثم ساق موقفه من الصفات في تفسيره.

2: التعريف بكتاب: الجواهر الحسان في تفسير القرآن.

وفيما يلي دراسة موجزة وتعريف سريع من وجوه عديدة بهذا الكتاب المفيد:

أ. أصل الكتاب: في البداية عند القاء نظرة عامة على تفسير الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن وتأملنا أقوال صاحبه وكذا العلماء فيه، وجدناه بأنه عبارة عن اختصارٍ لتفسير المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي (ت 542هـ)، وقد صرّح بذلك بنفسه قائلا: "فإنّي جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يقر الله به عيني وعينك في الدارين، فقد ضمّنته بحمد الله المهمّ مما اشتمل عليه تفسير ابن عطيّة، وزدتّه فوائد جمّه، من غيره من كتب الأئمّة، وثقات أعلام هذه الأمّة، حسبما رأيته أو روّيته عن الأثبات، وذلك قريب من مائة تأليف"[3].

ويقول السخاوي مؤكّدا هذا الأمر: "اختصر تفسير ابن عطية في جزئين"[4].

ولبركة هذا التفسير وعظيم نفعه والقبول الذي حظيه بين الناس، فقد رُويت عنه كثيرا من الرُّؤى التي

1 يراجع: الموسوعة الميسرة، الزبيري، 1196/2.

2 المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1420ه، 2000م، 1156/3.

3 الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ، 117/1.

4 الضوء اللامع، السخاوي، 152/4.

تفيد فضله وعموم خيره[1].

ولشدَّة اعتماد الثعالبي في تفسيره على تفسير ابن عطية؛ يقول عنه الذهبي: "ومن أجل هذا نستطيع أن نقول: إن الثعالبي في تفسيره هذا ليس له بعد الجمع والترتيب إلا عمل قليل، وأثر فكري ضئيل"[2]. ومن باب الإنصاف يضيف الذهبي قائلا: "وجملة القول.. فإن الكتاب مفيد، جامع لخلاصات كتب مفيدة، وليس فيه ما في غيره من الحشو المُخِلّ، والاستطراد المُمِلّ"[3].

ب. حجم الكتاب: يقع كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي في خمس مجلدات ضخمة، طبعة: دار إحياء التراث العربي ببيروت، بتحقيق: محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود.

فهذا هو التحقيق المتداول بين الباحثين والمتوفر حاليا على الشبكة العنكبوتية والمكتبات الإلكترونية.

ت. عنوان الكتاب: اسم تفسير الثعالبي هو: (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) وقد نصّ مؤلِّفه على ذلك، يقول الثعالبي في مقدمة تفسيره: "وسمّيته بـــ: الجواهر الحسان في تفسير القرآن"[4].

ث. تأليف الكتاب: ذكر الثعالبي سبب تأليف كتاب الجواهر في مقدمة تفسيره وأبان عن ذلك غاية البيان، والتي أعتقد أنها سبب في بقاء هذا التفسير وانتفاع الناس به من بعد وفاة صاحبه، ومن تأمّل دوافع التأليف وجدها تنحصر في أمور عديدة هي:

– بُغية الانتفاع من أنوار القرآن الكريم في ظلمة القبور.

– تعظيم القرآن الكريم؛ حيث علم الثعالبي أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم.

– أنّ القرآن الكريم من علوم الآخرة التي تقرِّب إلى الله تعالى؛ وتخلِّص النِّيات وتنهى عن الباطل؛ وتحضُّ على الصالحات.

– اشغال الفكر بمعاني كتاب الله تعالى رجاءَ النجاة من النار[5].

ومن أمعن النظر في هذه الأسباب التي حملت الثعالبي على تدوين تفسيره القيم، أدرك إخلاص الرجل وصدقه مع الله تعالى، فكلامه يوحي بذلك ويدل عليه.

---

1 يراجع: نيل الابتهاج، التنبكتي، ص 261.

2 التفسير والمفسرون، محمد الذهبي، 179/1.

3 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4 الجواهر، الثعالبي، 120/1.

5 يراجع: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

لم يرد الثعالبي من وراء هذا التفسير تحصيل دنيا فانية ولا متاع زائل، ولا أراد نيل شهرة ولا سمعة بين الناس، أو حظوة عند السلطان وتقريبا لديه..، بل قصد وجه الله والدار الآخرة، والانتفاع بمعاني القرآن العزيز وعلومه الغزيرة، والاهتداء به ليكون له سببا في نجاته من النار يوم القيامة.

قلت: وهذا والله هو عين الصواب وأهدى السبل؛ أن يبتغي العالم بعلمه نيل رضا الله تعالى واتّقاء عذابه، وكفى بهذا مكرُمة وفلاحا، وإلاَّ كان هذا العلم وبالا على صاحبه وطريقا له إلى الشقاء.

ج. تصنيف الكتاب: أدْرج مناع القطان[1] تفسير الثعالبي ضمن كتب التفسير بالمأثور، وقد عدَّه نور الدين عتر كذلك[2]، وذكر محمد الذهبي هو الآخر تفسير الثعالبي ضمن أهم وأشهر التفاسير بالأثر[3].

أي قد اعتنى صاحبه بتفسير الآيات من خلال الأثر والمنقول لا بالرأي والمعقول. وشواهد هذا الأمر في تفسيره كثير سنذكر بعضها في المنهج المتبع في الكتاب.

ح. نسبة الكتاب: نسبة تفسير الجواهر للثعالبي ثابتة من دون أدنى شك، وقد أجمع المترجمون لسيرته على صلة الكتاب بمؤلفه دون خلاف، يقول السخاوي: "وكان إماما علامة مصنفا اختصر تفسير ابن عطية في جزءين"[4]. ويقول ابن مخلوف أيضا: "له تأليف كثير مفيدة منها تفسير اختصر فيه ابن عطية وشحنه بفوائد كثيرة"[5]. وقد سمى البابانى[6] تفسير الثعالبي باسمه؛ وذلك عند ذكره لجملة من من مؤلفاته.

خ. مصادر الكتاب[7]:

اعتمد الثعالبي في انجاز تفسيره البديع على كمّ هائل من المصنفات وصلت إلى ما يقارب مئة مؤلَّف، وقد كانت هذه الكتب لأهل العلم والدين من المشهورين والمحققين، كما جاءت في علوم شتى من

1 يراجع: مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3، 1421هـ، 2000م، ص 370.

2 علوم القرآن الكريم، نور الدين محمد عتر الحلبي، مطبعة الصباح، دمشق، ط1، 1414هـ، 1993م، ص 83.

3 التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، دط، دت، 147/1.

4 الضوء اللامع، السخاوي، 152/4.

5 شجرة النور، ابن مخلوف، 382/1.

6 يراجع: هدية العارفين، البابانى، 532/1.

7 يراجع: الجواهر، الثعالبي، 117/1.

علوم الشريعة[1]، وهذا يبعث في نفسية الطالب الهمة العالية والنشاط في مطالعة الكتب وجرد المطولات، حيث يبقى الواحد منا في هذه الأزمنة المتأخرة في عجب من شأن هذا المفسِّر؛ وهو يرى العدد الضخم من الكتب التي رجع إليها واستفاد منها في تفسيره، ولهذا جاء تفسيره ثريا ذا فوائد جمة؛ وعلوم غزيرة في أبواب شتّى.

وسوف أذكر هذه الكتب مجزّئة تبعا للعلم الذي تندرج فيه، بحسب ما أورده الثعالبي في المقدمة أو في ثنايا تفسيره؛ وهذا كالآتي:

كتب التفسير: المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، ومختصر تفسير الطبري لأبي عبد الله محمد بن عبد الله اللخمي، ومختصر البحر المحيط للصفاقسي المسمّى: المجيد في إعراب القرآن المجيد. مفاتيح الغيب للرازي.

كتب غريب القرآن: الغريبين في القرآن والحديث للهروي.

كتب الحديث: صحيح البخاريّ، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن التّرمذيّ، ومصابيح السنة للبغوي.

كتب آيات الأحكام: أحكام القرآن لابن العربي.

كتب الأذكار والدعوات: الأذكار للنوي، وسلاح المؤمن لابن الإمام.

كتب الشمائل: الشفا للقاضي عياض، والآيات والمعجزات لابن القطان.

كتب التاريخ: الاكتفاء في أخبار الخلفاء لابن الكردبوس.

كتب التزكية والرقائق: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للإمام القرطبي. والعاقبة لابن الخراط. والرقائق لابن المبارك، وبهجة المجالس لابن عبد البر، وإحياء علوم الدين والجواهر للغزالي. وغيرها من كتب الرقائق..

1 يراجع: الجواهر، الثعالبي، 117/1 - 119.

كتب الفقه والأصول: المدونة لسحنون بن سعيد، والإلمام في أحاديث الأحكام لابن دقيق العيد، والبيان والتحصيل لابن رشد.

كتب شرح الأسماء والصفات: شرح أسماء الله الحسنى للرازي، وغاية المغنم في اسم الله الأعظم للموصلي.

هذا؛ ولو استعرضنا تفسير الثعالبي وما حوته صفحاته من كتب الأئمة والعلماء لرأينا أضعافا مضاعفة مما قد ذكرناه؛ وقد كفانا المؤلف مُؤنة التتبع والاستقراء حين صرّح في مقدمته أنه ضمّنه "من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة، حسبما رأيته أو رويته عن الأثبات، وذلك قريب من مائة تأليف"[1].

وهذا يدل دلالة واضحة على أن الثعالبي كان عالما موسوعيا وذا اطلاع كبير على كثير من العلوم ومؤلَّفاتها ومؤلِّفيها.

د. منهج لكتاب:

سنتحدث الآن عن زوايا الكتاب وملامحه الكلية وسماته البارزة، لنستخلص نظرة عامة ونأخذ فكرة جلية عن هذا التفسير الذي سبق وأن تقرر بأنه مختصر وخلاصة لتفسير سابق له وهو تفسير المحرر لابن عطية، بشهادة المختصِر له في مقدمة كتابه وخاتمته.

وبما أن تفسير الجواهر ذو حجم واسع بعض الشيء – متوسط –، فسنقتصر على ذكر أهم المعالم التي قام عليها وجوانبه التي تميز بها كما يأتي ذكره:

– **جانب التفسير:** تفسير الجواهر ذو صبغة أثرية ومسحة نقلية واضحة في تناول معاني الآيات القرآنية، ومما يؤكد هذا الأمر اعتماده على مصدر أصيل في التفسير بالأثر وهو تفسير ابن جرير الطبري، وليس يعني هذا خلوَّه من الرأي المحمود ولغة العرب..، والشواهد على تفسيره بالأثر كثيرة، منها:

1 الجواهر، الثعالبي، 117/1.

تفسيره للقرآن بالقرآن: لقد أبدع في مستهل تفسيره في سورة الفاتحة، إذ نجده يفسِّر لفظ الهداية ويعدِّد تصرُّفاتها في آيات الكتاب العزيز، حيث ذكر لها وجوها كثيرة من المعنى لكل وجه مستنده من القرآن الكريم.

فيذكر الثعالبي أن من معاني الهدى الدعاء كقوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ**﴾ [الرعد: 7]. وقد جاء الهدى بمعنى الإلهام من ذلك قوله تعالى: ﴿**أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى**﴾ [طه: 50]. وقد جاء الهدى بمعنى البيان من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ**﴾ [فصلت: 17][1].

تفسيره للقرآن بالسنة: نقل الثعالبي[2] عن ابن العربي تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58)**﴾ [النساء:58]. وأوضح أن هذه الآية عامة في أداء الأمانة والحكم بين الناس وهي شاملة لجميع الخلق من الولاة وغير الولاة من عموم المسلمين لأن كل مسلم حاكم، ومستند ذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[3].

تفسيره للقرآن بأقوال الصحابة رضي الله تعالى عنهم: من ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ [البقرة: 143] "أي: صلاتكم، قاله ابن عبَّاس وغيره "[4].

– **جانب القراءات واللغة:** جاء تفسير الثعالبي ثريًّا بالاستشهاد بالقراءات القرآنية المتواترة وتوجيهها في بيان المعاني المختلفة، باعتبارها من تفسير القرآن بالقرآن، ولهذا اهتم بها غاية الاهتمام في تفسيره، ومن ذلك تفسيره قوله تعالى: ﴿**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا**

1 يراجع: الجواهر، الثعالبي، 166/1 – 167.

2 يراجع: المصدر نفسه،، 253/2.

3 أخرجه البخاري في كتاب: العتق، باب: كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي وأمتي، حديث: 2554. صحيح البخاري، البخاري، 150/3.

4 المصدر السابق، 328/1.

هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 140]. حيث أورد قرائتان هما: أم تقولون و أم يقولون، فعلى الأولى عطف على ألف الاستفهامِ المتقدِّمة: قل أتحاجوننا، وهي قراءةُ: ابن عامر، وحمزةَ، وغيرهما، وعلى الثانية مقطوعة وهي قراءة: نافعٌ وغيره[1].

وأما فيما يتعلق باللغة وحضور شواهدها في تفسيره والاحتجاج بها في التأويل، فقد أخذت حيزا كبيرا هي الأخرى، حيث وظّف الثعالبي لسان العرب في شرح المفردات وبيان الغريب في كثير من المواضع، ومن ذلك: تفسير لفظ: (الصبغة) من قوله تعالى: ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)**﴾ [البقرة: 138]. قائلا: "قيل: سمي الدِّين صبغة استعارة من حيث تظهر أعماله وسِمَتُهُ على المتدِّين كما يظهر الصِّبْغ في الثَّوْب وغيره"[2]. وقال في بيان معنى السحاب من قوله تعالى: ﴿**وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)**﴾ [البقرة: 164]. "والسَّحاب: جمع سحابة، سمي بذلك لأنه ينسحب"[3].

– جانب الأحاديث والأحكام:

مثْل ما ذكر المؤلِّف في مقدمة تفسيره: فقد اعتمد على أصول المصادر الحديثية كالصحيحين والسنن وغيرهما من كتب الحديث النبوي الشريف، وقد أشار إلى هذا الأمر في البداية قائلا: "وبالجملة فكتابي هذا محشوّ بنفائس الحكم، وجواهر السّنن الصحيحة والحسان المأثورة عن سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم"[4]. وجاءت طريقته في الاستدلال بالأحاديث مقطوعة الإسناد من باب الاختصار على القارئ، ومع الإحالة على كل المصادر الحديثية التي أفاد منها ونقل عنها وكذا على اسم الرواة، محقِّقا بذلك شرطه القاضي بالعزو لكل المروِيَّات.

من ذلك قوله: "وفي صحيح مسلم عن عائشة – رضي اللَّه عنها – قالت: «**ما شبع آل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ تِبَاعاً حتى مضى لِسَبِيلِهِ**»"[5].

1 يراجع: الجواهر، الثعالبي، 325/1.
2 المصدر نفسه، 235/1.
3 المصدر نفسه، 351/1.
4 المصدر نفسه، 119/1.
5 المصدر نفسه، 332/5.

وقوله: "وفي البخاريِّ عن جبير بن مطعم عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «**لاَ يَدْخُلُ اَلْجَنَّةَ قَاطِعٌ**»"[1].

بل وسعى إلى بيان درجة الحديث في غير الصحيحين بتعليقات حديثية نفيسة، نحو قوله في حديث عائشة – رضي اللّه عنها – أن النبي صلى الله عليه وسلّم نظر إلى القمر، فقال: «**يَا عَائِشَةُ اسْتَعِيذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا فإنَّ هَذَا الغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ**». قال: "رواه الترمذي والنسائي، والحاكم في «المستدرك» ، واللفظ للترمذي، وقال حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد"[2].

أما عن كلامه في الفروع الفقهية من خلال تفسيره واستنباطاته للأحكام العملية من آي الكتاب الكريم: فقد تميز هذا الجانب لديه بالوفرة والجودة سيما عند تعرُّضه للخلاف المذهبي بأدلته الشرعية[3]، ويُكثِر من احتجاجه بمذهب مالك[4]؛ ولا يذكر ترجيحا إلا بقول إمام متَّبع[5] أو دليل قوي[6].

وقد ترك الإسهاب في بيان الأحكام والتوسُّع في نقل الأقوال والمذاهب خشية التطويل كما ذكر ذلك في ثنايا التفسير[7]، وكلامه في الفقه كان صادرا بكثرة من أحكام القرآن لابن العربي المالكي[8]؛ فضلا فضلا عن أخذه الواسع من كتب بعض المالكية: كالموطأ والمدونة والمنتهى لابن الحاجب[9].

وسلك مسلكا واضحا وانتهج منهجا علميا موضوعيا في عرض المسائل وتناولها بالبحث وتحرِّي الدليل واستقصاء القول الصحيح دون تعصب أو هوى، ودليل ذلك كلامه في ركنية السعي في الحج، وأنه فرض لا يُـــجزئ تاركَه إلا العودة، مستدلا بقول عليه الصلاة والسلام: «**إنّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيكُمُ**

1 الجواهر، الثعالبي، 238/5.
2 المصدر نفسه، 640/5 – 641.
3 يراجع على سبيل التمثيل: المصدر نفسه، 343/1، 437، 547. 290/2.
4 يراجع على سبيل التمثيل: المصدر نفسه، 416/1. 289/2. 341/2.
5 يراجع على سبيل التمثيل: المصدر نفسه، 290/2-291. 165/3. 174/4.
6 يراجع على سبيل التمثيل: المصدر نفسه، 194/2- 195.
7 يراجع: المصدر نفسه، 443/3.
8 يراجع على سبيل التمثيل: المصدر نفسه، 343/1. 416/1. 275/2.
9 يراجع على سبيل التمثيل: المصدر نفسه، 505/1. 216/2. 151/4.

السَّعْيَ، فَاسْعَوْا»[1]. وهنا استنبط من آية السعي: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158)**﴾ [البقرة: 158]، دليلَ الوجوب بوجه لطيف قلّ وجوده عند غيره مما يدل على دقة فهمه وحسن نظره في النصوص، حيث قال: "ويعضِّده المعنى، فإنه شعار، أي: معلم لا يخلو عنه الحجُّ والعمرة، فكان ركنا كالطواف"[2].

– جانب الإسرائيليات:

سار الثعالبي على حذر في تفسيره من جانب الرواية عن بني إسرائيل، حيث نجده عند إيراد خبر من أخبارهم لا يقطع له بالصحة أحيانا ويفنِّده أحيانا أخرى، فهو لا يعتمد على القصص كثيرا لغياب السند الموصل إليها.

والشواهد على ذلك كثيرة منها: قصة مائدة بني إسرائيل: حيث بعد أن ذكر ما روي في شأنها وشأنهم تعقَّبها في النهاية بقوله: "وأكثَرَ الناسُ في قصص المائدةِ ممّا رأيت اختصاره لعدم سنده"[3].

أو قصة الرجل الذي مرَّ على قرية ثم أماته الله تعالى مئة عام ثم بعثه، قال الثعالبي: "وكثّر أهل القصص في بصورة هذه النَّازلة تَكْثيراً اختصرته، لعدم صحته"[4].

مما يفيد شدة تثُّبت الثعالبي في تلقي القصص وقبول الأخبار.

ذ. القيمة العلمية للكتاب:

لقد حظي تفسير الجواهر للثعالبي بالثناء الكبير والإشادات المتواترة من أهل العلم السابقين منهم واللاحقين، فالكل مجمع على قيمته العلمية وفوائده المعرفية.

---

1 أخرجه البيهقي في الكبرى وغيره: كتاب: الحج، باب: وجوب الطواف بين الصفا والمروة وأن غيره لا يجزئ عنه، حديث: 9441. السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن علي البيهقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، السعودية، ط1، 1432هـ، 2011 م، 14/10.

2 الجواهر، الثعالبي، 344/1.

3 يراجع: المصدر نفسه، 439/2.

4 المصدر نفسه، 510/1.

يقول ابن مخلوف: "له تأليف كثير مفيدة منها تفسير اختصر فيه ابن عطية وشحنه بفوائد كثيرة"[1].

ويقول التنبكتي هو الآخر في مدح التفسير: "وأما تآليفه فكثيرة كتفسيره الجواهر الحسان في غاية الحسن، اختصر فيه ابن عطية مع فوائد وزوائد كثيرة"[2].

والأمر ذاته عند المعاصرين ممن شهد لتفسير الثعالبي بالمكانة الرفيعة وجودة الكتاب؛ الذي أتى كخلاصة جامعة لعديد من الفنون والمعارف بطريقة مختصرة لا إملال فيها ولا إخلال.

فهذا محمد الذهبي يقول: "وجملة القول.. فإن الكتاب مفيد، جامع لخلاصات كتب مفيدة، وليس فيه ما في غيره من الحشو المُخِل، والاستطراد المُمِل"[3].

ويزيد نور الدين عتر بيانا لصورة الكتاب وحقيقته قائلا: "نستطيع أن نعتبر تفسير الثعالبي صفوة منتخبة ومستخلصة من مصادر كثيرة في هذا الفن،.. وقد اشتمل الكتاب بهذا على فوائد هامة نظرا لنقوله الكثيرة عن مصادر مفقودة، كما أنه يمتاز بوضوح العبارة وسلاسة الأسلوب، مع احتياطه في شأن الاسرائيليات"[4].

خاتمة:

ننتهي في ذيل البحث إلى بعض النتائج والتوصيات كالآتي:

نتائج:

أقول في ختام هذه الورقات:

إن التفسير علم شريف مبارك يعنى ببيان معاني القرآن الكريم، فيوصل صاحبه والمشتغل به إلى تحقيق التدبر المأمور به شرعا؛ ليحصل للعبد بعد ذلك الهداية والانتفاع: في قلبه بالإيمان وفي جوارحه بصالح الأعمال.

1 شجرة النور، ابن مخلوف، 382/1.
2 نيل الابتهاج، التنبكتي، 259/1.
3 التفسير والمفسرون، محمد الذهبي، 179/1.
4 علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص 84.

ولهذا عند سبرنا للتاريخ الإسلامي: نجد ما خلّفه سلفنا الصالح في العناية بالقرآن وعلومه، بداء بالصحابة الكرام – رضي الله عنهم – إلى التابعين ومن بعدهم من الأئمة الأعلام؛ ما تفخر بهم مكتباتنا وتعْتز به أمتنا.

كما أن الناظر في التراث الإسلامي عموما والمغربي خصوصا في باب التفسير تحديدا، ليقف على

جهود مباركة وإسهامات مشكورة من ثلة من العلماء المحققين، حيث أنفقوا من أوقاتهم ما فاق كل خيال ونال كل إعجاب.

ولعل خير مثال على هذا الأمر وشاهد في هذا السياق، ما احتضنته بلاد الجزائر من أهل القرآن وحملة الكتاب، حيث جادت هذه البلاد بعلم من أعلام التفسير في زمانه ووحيدِ أيامه، ملأ الدنيا بعلمه وشغل الناس بكتابه، إنه: الإمام أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي الجزائري صاحب تفسير: " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " الذي قال عنه أحد الباحثين بصدق: "يعد مرجعا مهما في بابه؛ لأنه يعتبر عصارة تفسير ابن عطية الذي يعتبره ابن خلدون عصارة التفاسير المتقدِّمة عليه"[1].

توصيات:

– مجاهدة النفس على العمل بالكتاب العزيز؛ إذ هو مقصود الكتاب والمطلوب من العباد.

– العناية بعلم التفسير وما يرتبط به من علوم أخرى: قراءات، غريب، إعراب، معاني..

– تثوير كتاب الجواهر الحسان؛ والغوص إلى درره المكنونة وفرائده المدفونة.

– دراسة شخصية الثعالبي العلمية وتعريف الطلاب والناشئة بها.

– احياء تراث المغاربة في مجال الدراسات القرآنية من جديد.

– ابراز جهود علماء الجزائر في خدمة القرآن الكريم: تعلُّما وتعلميا.

1 التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، أبو الأرقم محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طرهوني الكعبي السلمي المصري المدني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426هـ، 699/2.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

– الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1394هـ، 1974م.

– آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت، دط، دت.

– الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.

– آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، إسحاق بن الحسين المنجم، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ.

– البحر المحيط في التفسير، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل دار الفكر، بيروت، دط، 1420هـ.

– البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، القاهرة، ط1، 1376هـ، 1957م.

– بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، دط، دت.

– التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، أبو الأرقم محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طرهوني الكعبي السلمي المصري المدني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426هـ.

– التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، دط، دت.

– تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م.

– جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1420هـ، 2000م.

– الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، مطبوعات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984م.

– جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م.

– الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ.

– زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1422هـ.

– السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن علي البيهقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، السعودية، ط1، 1432هـ، 2011م.

– شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1424هـ، 2003م.

– صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422ه.

– الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، دت.

– علوم القرآن الكريم، نور الدين محمد عتر الحلبي، مطبعة الصباح، دمشق، ط1، 1414هـ، 1993م.

– فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط1، 1414هـ.

– كتاب السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد، تحقيق: شوقي ضيفدار المعارف، مصر، ط2، 1400هـ.

– لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف القاهرة، دط، دت.

– مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3، 1421هـ، 2000م.

– المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.

– مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفيّ الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ابن شمائل القطيعي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412 هـ.

– المسالك والممالك، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، دار صادر، بيروت، دط، 2004م.

– معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1420هـ.

– المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، محيي الدين، تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1426هـ، 2006م.

– معجم أعلام الجزائِر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ، 1980م.

– معجم الأدباء، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق: إحسان عباس دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414 هـ، 1993م.

– معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م.

– معجم المفسرين، عادل نويهض، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1409هـ، 1988م.

– معجم المؤلفين عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت.

– المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1420ه، 2000م.

– مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط3، دت.

– الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، جمع وإعداد: وليد بن أحمد الحسين الزبيري وآخرون، مجلة الحكمة، مانشستر، بريطانيا، ط1، 1424هـ، 2003م.

– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صاد، بيروت، لبنان، دط، 1900م.

– نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج التنبكتي، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، ط2، 2000م.

– هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي، وكالة المعارف الجليلة، استانبول، دط، 1951م.